

رد على نقد

## القديم والجديد

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

- - -

أحس أن علي دينا لقراء الرسالة يجب الوفاء به ، فقد كنت وعدت إذا زال الحائل الذي كان يحول بيني وبين الكتابة أن أعود فأفصل ما أجملت في خطابي الذي نشرته الرسالة وتقيدت فيه بذلك الوعد . وما أجملته هناك وأريد الآن تفصيله ، هو أن ما فهمه الأستاذ (قارى) من بعض كتابي ، وانتقده في مقالته « الدين والأخلاق بين القديم والجديد »<sup>(١)</sup> شيء آخر غير ما أردته بما كتبتة ، وأزيد الآن أنه شيء آخر غير ما تفيدته تلك الكلمات

وليس الذي يدعوني إلى السكرة بمد تلك الفترة مجرد حب الوفاء ، ولا مجرد الرغبة في أن أبين أني أصيبت ولم أخطئ ، فالإنسان يخطئ ويصيب ، ولا غضاضة على المخطئ مادام يخلص النية ويتبع وجه الحق . إنما أكبر ما يجعلني أحرص على الرد هو الرغبة في تصفية مسألة القديم والجديد مرة أخرى — فقد صفتها قبل ذلك في بعض فصول كتابي النقد التحليلي — لتبين وجه الحق فيها عسى ألا يعود أحد ينخدع بما بين لفظي القديم والجديد من تفاوت ، فيؤثر في المتغيرات الجديد لجدته على القديم لقدمه ، كما تعود أن يؤثر في المتغيرات الجديد على القديم في المأكل والمسكن واللباس والنقد الذي كتبه الأستاذ (قارى) ، وصدر فيه عن أدب جم موجه إلى كلمتين اثنتين من كتابي : إلى الكلمة الأولى التي قدمتها بين يدي ما كنت أريد من كتابة حول أدب الرافعي ، وإلى بعض الكلمة السابعة التي جعلتها خاتمة تلك الكلمات . ويظهر أن الأستاذ حين بدأ يكتب ، كتب عفو الساعة من غير أن يرجع إلى الكلمة المنقودة وإلى أخواتها إن لم يستوثق من أن المعنى الذي في ذاكرته هو حقا المعنى المقصود بالكلام المنقود ، فقد كان صرا على الكلمة الأولى المنقودة بضمه أسايح حين كتب الأستاذ

ثم يظهر أن تلك الكلمة الأولى من كتابي صورت مسألة القديم والجديد صورة غير مألوفة . فلم تقصرها على ميدان الأدب

(١) انظر الأعداد ١١٤٣ ، ١١٨٤ ، ١٢٩٧ ، ١٢٦٧ ، ١٢٢٨ ، ١٣٤١ ، ١٤٢٧ ( من الرسالة )

ولكن عدتها إلى ميدان الاجتماع ، ثم جملت من الميدانين ميداناً واحداً ، ومن حركة النزوع إلى الجديد في كل منهما حركة واحدة تشملهما جميعاً هي حركة الانصراف إلى جديد الغرب ولو استلزم ذلك الانصراف عن قديم القرآن

لكن هذا التصور أقرب إلى صميم الأمر وإن كان تصورياً غير مألوف . غير أن قربه من الحق لا يتبين حتى تتبين حدود تينك الحركتين الأدبية والاجتماعية اللتين ركبتنا معاً في حركة واحدة حين صورنا ذلك التصور

وأول هذه الحدود وأوضحها أن تكون الحركة العلمية أو الصناعية غير داخلة في تينك الحركتين ، فإن الأدب والاجتماع غير العلم والصناعة بالدهاء . وإذن فلا محل للرجوع بحركة الجديد إلى عهد محمد علي كما يريد الأستاذ (قارى) لأن عهد محمد علي فيما نعرف لم يأخذ عن الغرب إلا علمه وصاعته ، ولم يمس النظم الإسلامية الاجتماعية في كثير ولا قليل

وحد آخر من حدود حركة الجديد التي أردناها : أن روحها يخالف روح الإسلام في الصميم . من أجل ذلك أخرجنا منها حركة التجديد التي قام بها الإمامان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده كما هو صريح مقالنا الأول الذي نقده الأستاذ من الذائكة من غير رجوع إليه . وهذا الحد الثاني كان وحده في إخراج عهد محمد علي مرة أخرى من نطاق البحث ، وإخراج كل حركة جديدة تتفق مع الدين

وحد ثالث من حدود حركة الجديد التي أرخناها : أنها حركة أفراد لا حركة حكومات ، اللهم إلا أن تكون حركة الحكومة نتيجة من نتائج انتشار حركة الأفراد كما حمل أصحاب الحركة النسوية مثلاً الحكومة المصرية على تمهيد من الزواج . ولم يخطر ببالنا أن ننبه بهذا الفارق حين كتبنا ما كتبنا ، لأننا أولاً لم نكن بصدد التاريخ للجديد على إطلاقه ، ولكن كنا بصدد الكلام على حركة صارت بعد مذهبنا اعتنقه أفراد دعوا إليه وثاروا على دعوتهم حتى انتشرت وصار لها من السلطان ما لها اليوم — ثانياً — كان وانحما من سياق ما كتبنا ومن الظرف الذي دعا إلى الكتابة ومن بعض عبارات فيها مثل : « مسألة القديم والجديد عمرها لا يكاد يزيد على ثلاثين عاماً آثارها في الناس نفر تتفقوا ثقافة غربية من غير أن يكون لأكثرهم من الثقافة الإسلامية نصيب مذكور .

والحركة التي بدأها قاسم لم تكن لتبلغ ما بلغت وتستشري كما استشرت لو لم تجد من الحركة الجديدة في الأدب مؤيداً وظهرياً . فإنك إذا تبعت الحركتين وجدتهما سائرتين جنباً لجنب تأخذ إحداهما بيد أختها تقبها العثرة وتثبتها في المعترك ، وإنك لو وجد أن الصحف التي ظهرت إحدى الحركتين هي نفس الصحف التي ظهرت الأخرى ، وأن أنصار الجديد في الأدب كانوا ولا يزالون هم أنفسهم أنصار السفور من قبل وأنصار الاختلاط وما إليه اليوم . كانت الجريدة في مبدأ الحركتين لسان الدفاع عن كليهما والدعوة إليهما ، ثم كات جريدة «السفور» ، ثم «السياسة» ، ثم «السياسة الأسبوعية» وغزا أنصارها الصحف الأخرى وخالها الجولان غاب « المؤيد » و « اللواء » ، وصارت الدعوى الجديدة هي البدع و « الموضة » فن لم يقل بها عن نية واعتقاد قال بها كيلا يوصف بالرجعية والجود . وليس بهم الآن تحليل ذلك ، إنما المهم توكيد ما كان بين الحركتين من اتصال وتلاقح وتعاون ، فالحركة الجديدة في ميدان الاجتماع أعقبت لوناً جديداً من الأدب لم يكن موجوداً قبلها يصح أن يسمى بأدب السفور ، والحركة الجديدة في ميدان الأدب مهما يكن أصل نشأتها ، قد امتزجت بعد بالحركة الاجتماعية الجديدة المتفانقة واستوحيت منها أكثر وحيها لأن روح بكل منهما مستمدة في صميمها من روح الغرب لا من روح الإسلام . ومن يكن في شك من هذا فليرجع مثلاً إلى مجلدات « السياسة » و « السياسة الأسبوعية » قبل ظهور كتاب « حياة محمد » ، فيستجلي له المذهب الجديد في الأدب والمذهب الجديد في الاجتماع قد انحدا في حركة واحدة شاملة تنبض بروح الخلاف للإسلام ، لأن أصحابها لجهل أكثرهم بالإسلام صدقوا ما زعمه لهم الغرب من أن الإسلام هو سبب تأخر المسلمين وإذا كان من رجال الحركة الجديدة في الأدب من لم يناوئ الإسلام مع الغرب ومشايبه من أهل الحركة الجديدة في الاجتماع فلم يتخذ من وحيها وحيه في كتاباته ، ولم يجر معها إلى آخر الشوط الذي جرت وتجري إليه ، فإن هؤلاء نفر جد قليل . والناظر إلى صميم الأمر لا يستطيع أن يحكم على حركة إلا بما ينبل عليها ، وسيجعل لذلك القليل مخرباً إن أمكنه ولو بتقسيم آخر . ونظن أننا فلنا ذلك بالحد الثاني من الحدود التي فصلناها آنفاً ، وبما سنبيته إن شاء الله في مقال نال محمد أحمد الغمراوي

وهذا ، وغيره لا يدع مجالاً للشك في أن المقصود هو مسألة القديم والجديد التي ثارت بين الناس والتي لا تزال موجودة بيننا فهذا الحد الثالث كان هو أيضاً لأن يخرج من نطاق البحث كل حركة لم يتم بها فرد أو أفراد ولم يستقمها جمهور من الناس . وإذن فالحركة التي قصدنا بالنقد والتي قدرنا عمرها بثلاثين عاماً هي حركة قائمة بيننا الآن لا ترجع إلى عهد نابليون في مصر ولا إلى عهد محمد علي ولا إلى عهد اسماعيل ، ولكن ترجع في رأينا من الناحية الأدبية إلى العهد الذي كان هيكله وأمثاله يكتبون فيه في « الجريدة » ، ومن الناحية الاجتماعية إلى العهد الذي كتب فيه قاسم أمين وأصدر فيه كتابيه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » والمهدان في الحقيقة عهد واحد يظلهما زمن واحد هو زمن اشتداد الحركة الوطنية الأولى حوالي ١٩٠٨ أو قبلها بقليل . ومن هنا أمكن تقدير عمر واحد للحركتين اللتين بدأنا في الأدب والاجتماع حوالي ذلك التاريخ ، واللذين جعلنا منهما حركة جديدة واحدة عمرها بالطبع عمرها ، وهو تقدير طبيعي كما ترى لا عوج ولا تكلف فيه .

والأستاذ قارى لم يأخذ علينا مخالفة للواقع فيما يتعلق بالحركة الأدبية من تقديرنا ذلك ، فهو يوافقنا فيه وإن كان بعض ما كتب في مقاله الخامس<sup>(١)</sup> يدل على أنه يميل إلى جعل عمر حركة الجديد في الأدب أقل من ثلاثين . أما من الناحية الاجتماعية فإن التاريخ لحركة الجديد فيها بظهور كتابي قاسم أمين أمر معقول . فقبل قاسم لم يدع مسلم في عصرنا الحديث إلى جديد في هذا الميدان ، ولم يحاول مسلم أن يدعو الناس في ميدان الاجتماع إلى مخالفة ما جرى عليه العمل في زمن الرسول صلوات الله عليه في مسألة الحجاب مثلاً والسفور . وإذا كان هناك من المسلمين أو غير المسلمين من سبق قاسماً إلى مثل ما دعا إليه فإنه لم يترك أثراً في الناس في مصر كما ترك قاسم ، ولم يستهو نقرأ إلى مذهبه كما استهو ، ولم يبدأ حركة كبرت بعده حتى تجاوزت كل ما كان يدور له في حبان . فقاسم أولى الناس بأن يبدأ بكتبه تاريخ حركة الجديد مما يخالف الإسلام في ميدان الاجتماع

(١) تشير إلى قوله « ولو أنا رجنا إلى ما ألف من المقالات والكتب منذ ثلاثين سنة ما وجدنا أثراً لهذا الاصطلاح : أي اصطلاح تقسيم الأدب إلى جديد وقديم ، وإنما كان الصراء الذين يسمون الآن أدباء المذهب الجديد يدعون إلى نزع شعر ألفوزل التكلف الخ »